(إن اللهَ لا يُغَيِّر مَا بقوْم)

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، لاإله غيره ولامعبود سواه ، نحمده سبحانه وتعالى ونشكره... ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله القائل : (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ...فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ...فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه...وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد فيقول ربنا في كتابه الكريم : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

• عباد الله : إن الْمُتَأَمِّل فِي حَال الأُمَّة الإسلامية الْيَوْم وَمَا أَصَابَهَا مِن الْضَّعْف وَالْهَوَان...وَمَا نزل بها مِن الذُّل وَالْصَّغَار ليَرَى بعيني رأسه السَّبَب الرَّئِيْسِي فِي ذَلِك : يَرَى أُمَّة أَسْرَفَت عَلَى نَفْسِهَا كَثِيْرا وَتَمَادَت فِي طُغْيَانِهَا...يَرَى أُمَّة نَسِيَت أن اللَّهَ يُمْهِل وَلايُهْمِل...يَرَى أُمَّة لَم يَبْقَ شَيْء مِن الْمُحَرَّمَات إلا وَقَد ارْتَكَبته...وَلَم يَبْقَ شَيْء مِن الْفَوَاحِش إلا وقد أُعْلِنت به...يَرَى أُمَّة تعاملت بالرِّبَا وتفشى فيها الزِّنَا...يَرَى أُمَّة أقامت للخمر مَصَانِع وَمُتَاجِر...يَرَى أُمَّة علا فيها صوت الشيطان على صوت الرحمن وارْتَفَعَ فيها مِزْمَار الْشَّيْطَان على كَلام الرَّحْمَن...يَرَى أُمَّة حَكَمَت الْقَوَانِيْنُ الْوَضْعِيَّة مكان مَنْهَج اللَّهُ وَرَسُوْلِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والكثير.والكثير.

أفبعد هَذَا نَرْجُوا نَصْرًا...وَنَطْمَع فِي عِزَّة...وَنَأْمَل بتَمْكِيْن...؟

• فالأمة الإسلامية اليوم تعيش فى شدة وكرب ، وها نحن ندعو الله فى كل وقت فلا يستجاب لنا...فكيف يستجيب الله لنا ونحن لم نستجب له فى قوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) وأكثر من ذلك فقد نسيناه..فأنسانا أنفسنا بعد أن حذرنا فقال : (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

• فقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) قانون عام لجميع خلقه...إذا استجابوا لربهم وأطاعوه رزقهم الله الخير الوفير كما قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) ويقول : (وَأَنْ لو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا) أما إذا لم يستجيبوا إبتلاهم الله بالْعُقُوْبَات قال تعالى :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

• فمفتاح التغيير بيد صاحبه والله لا يغير إلا إذا غير الإنسان نيته وعمله قال تعالى : (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) لذلك كانت الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يدعون الله تعالى بتغيير ما كتب عليهم ، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول وهو يطوف بالكعبة : اللهم إن كنت كتبتني من السعداء فأثبتني فيهم ، وإن كنت كتبتني من الأشقياء فامحني وأثبتني مع السعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب...وهذا عام في كل شئ فيمحو الله من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو الله من الأجل ويزيد فيه ، والدليل على ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) .

فسؤال الله كل يوم مطلوب قال تعالى : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)

فكما يتغير القدر كل يوم يتغير كذلك كل عام فى ليلة القدر قال تعالى :

(حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

فالأقدار تتغير بالنوايا ، وبالدعاء ، وبالأعمال الصالحة ، والدليل على ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلاَّ الدُّعَاءُ ، وَلاَ يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلاَّ الْبِرُّ) فهل يتساوى القائمون بالنائمين والمتصدقون بالممسكين ، والتائبون بالمصرِّين على المعصية ؟ لايتساوون!!! فالتوبة إلى الله تغيير لواقع هو فيه إلى واقع آخر .....

• ويصور لنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرحة الله بتوبة عبده فيقول : (للَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ) فالله يقبل توبة جميع العباد...فها هم أصحاب الأُخْدُودِ الذين لعنهم الله فقال : (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...) لعنهم بسبب إيذائهم للمؤمنين وهذه عامة فى كل من آذى المسلمين بسبب دينهم إلا إذا تابوا فقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) يقول الحسن البصري رضي الله عنه : انظروا إلى هذا الكرم والجود...قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة

• فإذا كنا جادين في تغيير الحال الذى نحن فيه فهذا كتاب ربنا يعرض لنا نماذج وأمثلة ممن سبقونا لنقتدي بهم :

فالمثال الأول : قصة السحرةُ الذينَ جاءوا لفرعونَ وقالوا : (أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) فأجابهم (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) فأقسموا بعزة فرعون بأنهم الغالبون فقالوا : (وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) فلما زهق الباطل وأشرقت شمس الحقيقة حدثَ شيء عجيبُ وغريب فإذا الذين كانوا يقولون بعزةِ فرعون إنا لنحنُ الغالبون إذا بهم يقولون : (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) ولما توعدهم بقوله : (لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) أجابوه (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وإذا الذينَ كانوا يقولونَ بذلة : (أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) إذا بهم يقولون : (قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) سبحان الله! ما الذي نفخ في هذه الأرواح التى كانت كالأرض الهامدةِ فلما ارتوت بالماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ؟ إنه الإيمانُ الذى أوقف الطغيان الفرعوني التي خُيِّل إليه أنه يملك الناس جميعا ، فماذا يملكُ الطغيانُ إذا رغبتِ القلوبُ في جوار الله واعتصمتِ بحب الله ؟ هذه نفوس غيرت ما بها فغير الله لها...

• والمثال الثانى : قبلَ بعثةِ النبي صلى الله عليه وسلم أرسلَ القيصرُ من الشامِ إلى عملائِه في الحبشة أن يكلفوا عملاءَهم في اليمن بهدمِ الكعبة فسار أبرهة بجيشه تتقدمه الأفيالُ من اليمن إلى مكة حتى وصلت إلى منى...فلما رأى أهلُ مكة الجيش فروا إلى رؤوسَ الجبالِ إلا رجلاً واحدا جاء إلى أبرهة وهو عبد المطلب جد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال حاجب أبرهة : أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك...وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم فلما رآه أبرهة هابه فأجله وأكرمه فنزل من على كرسيه وجلس معه على بساطه ثم قال لترجمانه : ما حاجتك ؟ فقال حاجتي : أن يرد علي الملك مئتي بعير أصابها لي ، فلما قال له ذلك... قال أبرهة لترجمانه : كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت أهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إنما أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه ، قال أبرهة : ما كان ليمتنع مني...فقال عبد المطلب : أنت وذاك!!! فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصابها له ، ولما رجع عبد المطلب إلى قريش أمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال تخوفا عليهم من الجيش ، ثم قام عبد المطلب وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

اللهم إن المرء يمنع * رحله فامنع رحالك & لا يغلبن صليبُهم * ومِحالُهم أبدا مِحالك (أي كيدهم ومكرهم)

• وتعرفون ماحدث لأبرهة وجيشه من تدمير كامل فقد نزلت بشأنه سورة الفيل وبعد حادثة الفيل بسبعين سنة تقريبا انتفضت مكة فغيروا الجزيرةَ كلَها...فإذا بهم يسيرونَ من الجزيرةِ لا إلى اليمن! ولا إلى الحبشة! ولكن ذهبوا إلى القيصر ذاتهِ في بلاده في الشام ليدكوا عروشَه ما الذي تغيرَ ؟ هل اكتشفَ العربُ سلاحا جديدا ؟ أم هل دخلوا في حلفٍ جديد ؟ ما الذي جعل الذينَ كانوا يفرونَ أمامَ عملاءَ القيصر إلى الجبال يغزونَ القيصرَ في عقر داره ؟ مالذى جعل مكة التي أنقذتها من أقدامِ الفيلةِ معجزةُ إلهيةٌ تصبحُ أمنعَ مدينةٌ في العالم ما الذي تغيرَ ؟ هل تغير الإنسانُ ؟ نعم لقد مات ذلك الإنسانُ الجاهليُ وولد ذلك الإنسانُ المسلمُ فتغير كلُ شيء...

نعم لقد غير العربُ ما بأنفسِهم فغّير اللهُ ما بهم

فماذا نحن اليوم من هذين المثالين ؟ المثلان بشرى لهذه الأمة إذا أرادت التغيير وقد أرادت إن شاء الله

• فالمثال الأول : فرعون ماذا كانت نهايته ؟ الغرق والعبرة لمن خلفه...وكذلك كل حاكم ظالم سيذهب وسيظل يذكر بأقواله وأفعاله...

• والمثال الثانى : هؤلاء السحرة عندما عرفوا الحقيقة خرجوا على فرعون...فكذلك هذه الشعوب الذين كانوا يظنون بأن رؤساءهم فوق الشبهات فإذا بهم شياطين بل أضل من الشياطين...لقد استيقظوا من نوم عميق بعد أن عاشوا فى سراب قادة عملاء... فهاهم اليوم يخرجون على رؤسائهم...وهم الباقون إن شاء الله...كما قال تعالى :

(...فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ)

• هذه شعوب كسرت حاجز الخوف فتغير كلُ شيء...لذلك فنصر الله سيأتيهم وقريبا إن شاء الله...وكيف لا ينصرهم الله وقد جعل الله نصرهم حقا لازما عليه حيث يقول تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) والقرآن الكريم ملئ بأمثلة رجال غيروا أنفسهم وواقعهم فغير الله ما بهم...فيقول تعالى فى شأن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم الذين بذلوا دماءهم وأموالهم فى سبيل الله ، هؤلاء الذين فارقوا ديارهم وضحوا بأموالهم في سبيل نشر دين الله :

(وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

• إن الله ينزل نصره على عباده إذا هم توكلوا عليه وأسلموا الأمر إليه يقول سبحانه عن طالوت ومن معه من المؤمنين الذين جاوزوا النهر لملاقاة جالوت وجنده : (...فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ...) .

• فالله سبحانه وتعالى ييسر الرزق لعباده إذا أحدثوا توبة نصوحا ولم لا ؟ أليس هو القائل : (وَمَن يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) ويقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)

• فالتغيير سنة الحياة...فإذا أردت أن يغير الله لك فغير نفسك...فإن لم ترغب فى التغيير فإنك لو سمعت مئات الخطب وقرأت مئات الكتب فلن تتغير...فلايكون التغيير إلا بالتوبة...وعن التوبة وأثرها على الفرد والمجتمع سيكون موضوع اللقاء القادم إن شاء الله .

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)

عناصر الخطبة

إن الْمُتَأمِّل فِي حَال الأُمَّة الإسلامية الْيَوْم
فالأمة الإسلامية اليوم تعيش فى شدة وكرب...
فقوله...قانون عام...
فمفتاح التغيير بيد صاحبه...
وهذا عام في كل شئ...
فالأقدار تتغير بالنوايا...
فهل يتساوى القائمون بالنائمين
ويصور لنا...حب...بتوبة عبده...
فالتوبة تقبل من جميع العباد...
فإذا كنا جادين فى تغيير الحال الذى نحن فيه...
فماذا نحن اليوم من هذين المثالين ؟
هذه شعوب تغيرت حين كسرت حاجز الخوف...
إن النصر يتنزل على العباد إذا هم توكلوا عليه...
فتيسير الرزق بالتوبة النصوح...
فالتغيير سنة الحياة أخى...